إن العامة من الناس ينظرون إلى المرأة وكأنها أحت للشيطان، يحب أن يتخذ منها الرجل حذره كي لاتضله عن سواء السبيل. بل إننا نجد هذه النظرة حتى عند الخاصة من المثقفين من أمثال الأستاذ «عباس محمود العقاد» الذي ينسب الاغواء في قصة الشجرة التي وردت في الكتب السماوية، إلى حواء، فيقول: «والشيطان حين قال لآدم وحواء: «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين». قد ألهب في حواء كل علة من علل المخالفة والولع بالممنوع، وسول لها الغواية والاغراء فأكلت وزينت لآدم أن يأكل مثلها[3]».

ويتناسى الأستاذ العقاد أن حواء لم تقترف الخطيئة وحدها، وإنما شاركها آدم عليه السلام، وهذا يبدو لنا بكل وضوح إذا نظرنا إلى بعض الآيات القرآنية الكريمة التي تخاطب آدم وحواء معاً، كالآية التي تقول: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغَدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه[4]

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن هذه النظرة الخاطئة إلى المرأة، أو هذه الروح المغالية في المحافظة لم تكن سمة بيئة الحكيم فحسب، وإنما كانت سمة جلية في سائر مناطق المشرق والمغرب العربيين[5].

وقد حاول كثير من رجال الفكر والأدب والإصلاح أن يعملوا على تغيير هذه النظرة إلى المرأة، من أمثال «رفاعة الطهطاوي»، و«أحمد فارس الشدياق»، و«أحمد لطفي السيد»، و«طه حسين»، و«ملك حفني ناصف» و«قاسم أمين» و«هدى شعراوي»، وغيرهم من رواد النهضة الحديثة[6].

وبعد، فما هو موقف الحكيم من هذا الموقف من المرأة؟ الواقع أن الحكيم كان متشبعاً بهذه الروح، يأخذ بما تأخذ به غالباً، ولايحيد عنها إلا نادراً، وبعد تردد، ولهذا فإنه وقف موقف المناهض لحركة تحرير المرأة التي نادى بها قاسم أمين.

ففي مقال للحكيم نشره في كتابه «عصا الحكيم» يهاجم «قاسم أمين»